- المحاضرة الثّالثة: قصيدة النّثر في الدّرس النّقدي العربي.

تندرج الصياغة النظرية لمفهوم قصيدة النثر العربية ضمن أفق الاحتكاك مع الغرب، والمثاقفة، والترجمة، وإعادة تشكيل المفاهيم النظرية في ضوء التجارب الشعرية الجديدة التي أرادت التخلص من الموروث وسيطرة عمود الشعر العربي.

ولابد أن نشير في هذا المجال إلى أن هناك **عوامل داخلية** مهدت لظهور قصيدة النثر منها أثر النثر الشعري عند " أمين الريحاني "، و"جبران" و" مي زيادة " وغيرهم ... **وعوامل خارجية** تتمثل في التأثر بقصيدة النثر الغربية.

لقد كان لكتاب سوزان برنار حول قصيدة النّثر الأثر العميق في تشكيل ملامح الشّعر العربي المعاصر، حيث تلقّى أعضاء جماعة "شعر" تلك الدّراسة بشغف كبير، وخاصة منهم يوسف الخال، وأدونيس، وأنسي الحاج...اللّذين عملوا على إعادة صياغة أفكار الكتاب السّابق، ونقلها إلى الوسط النّقدي العربي، لمنح الشّرعية لهذا النّوع الجديد من الكتابة الشّعرية.

فقد تساءل أنسي الحاج في مقدّمة ديوانه "لن" عن المفارقة التي تولّدها تسمية قصيدة النّثر، على اعتبار أن الشّعر والنّثر نقيضان، فقال: "**هل يمكن أن نخرج من النّثر قصيدة؟ ... طبيعة النّثر مرسلة، وأهدافه إخبارية أو برهانية، إنّه ذو هدف زمني، وطبيعة القصيدة شيء ضد. القصيدة عالم مغلق، مكتف بنفسه، ذو وحدة كلية التّأثير، ولا غاية زمنية للقصيدة. النّثر سرد، والشّعر توتّر، القصيدة اقتصاد في جميع وسائل التّعبير، النثر يتوجّه إلى شيء يخاطب، وكلّ سلاح خطابي قابل له، النّثريقيم علاقته بالآخر على جسور من المباشرة والتّوسع والاستطراد، والشّرح، والدّوران والاجتهاد الواعي بمعناه العريض، ويلجأ إلى كلّ وسيلة في الكتابة للإقناع، الشعريترك المشاعل: الوعظ، والإخبار، والحجّة، البرهان ليسبق**".

وقد أكّد أدونيس من خلال تنظيره لقصيدة النّثر على ضرورة خلخلة الذهنية القديمة في فهم الشّعر، وتحديد الفواصل بينه وبين بقية الأنواع الأدبية الأخرى، والمتمثّلة في سلطة الوزن والقافية، لأنّ التصنيف والتأطير من رواسب هذه الذّهنية التي "**تميّز بين الأنواع، وترغب في أن يظلّ النّقد الهندسي سائدا في الشّعر والفن عامة، كما كان سائدا في الماضي، لذلك ترى في قصيدة النّثر لقيطا مخيفا، ومخلوقا مشوّها لا يمكن أن يعيش.**"

و في هذا ما يؤكّد أنّ قصيدة النثر العربية ولدت في الظّروف والملابسات عينها التي ولدت فيها قصيدة النّثر الغربية، حيث شكّلت أكبر تمرّد عرفته القصيدة العربية، لكنّ هذا لا يعني أنّ وجودها كان مصادفة، فهي لم تظهر من فراغ بل تظافرت عدّة أسباب أدّت إلى ولادتها منها، ما هو ذاتيّ خاص، ونابع من القصيدة التّقليدية-نفسها-التي استنفدت طاقتها، ومنها ما هو خارجي ناتج عن التلاقح مع الغرب بموروثه الدّيني والثّقافي المتنوع، وبمنجزاته الحضارية المتحرّرة من كلّ القيود، وهو ما أكّده أدونيس بقوله: " **هناك عوامل كثيرة مهدت من الناحية الشكلية لقصيدة النثر في الشعر العربي، منها التّحرر من وحدة البيت والقافية، ونظام التفعيلة الخليلي، فهذا التحرر جعل البيت مرنا وقرّبه إلى النثر. ومن هذه العناصر انعتاق اللغة العربية وتحررها، وضعف الشعر التقليدي الموزون، وردود الفعل ضد القواعد الصارمة النهائية، ونمو الروح الحديثة، ثم هناك التوراة والتراث الأدبي القديم، في مصر وبلدان الهلال الخصيب، على الأخص، ومن هذه العناصر ترجمة الشعر الغربي، ومن هذه العناصر النثر الشعري وهو من الناحية الشكلية الدرجة الأخيرة في السلم الذي أوصل الشعراء إلى قصيدة النثر.»**

والملاحظ أنّ أدونيس في تحديده لخصائص النثر لم يخرج عن الإطار الذي رسمته سوزان برنار، إذ يؤكّد اعتمادها على وحدة الجملة كمقابل لوحدة البيت في القصيدة التّقليدية في قوله: " **لاشكّ أنّ الشّعر ذو صلة بالموسيقى، فقد كان تكرّر الصّوت في فواصل منتظمة، وتساوي اللّحظة الموسيقية في الأبيات أو توافقها، يسهّل التّرانيم الشّعرية القديمة، لكن إيقاع الجملة وعلائق الأصوات والمعاني والصّور، وطاقة الكلام الإيحائية، والذّيول التي تجرّها الإيحاءات وراءها من الأصداء المتلوّنة المتعدّدة، هذه كلّها موسيقى، وهي مستقلّة عن موسيقى الشّكل المنظوم قد توجد فيه بدونه أيضا.** " كما أنّه استطاع بالفعل أن يقرّب الخصائص الفنّية لقصيدة النّثر بشكل تستصيغه الذّائقة الشعرية، إذ عمل على توضيح معاني الوحدة، والمجانية، والكثافة، ولكنّه فشل في تقديم الفروق التي تميّز هذا اللون الفنّي عن الشّعر الموزون (العمودي أو الحر)، بحكم أنّ هذه الخصائص قد تتوفّر فيه كذلك؛ ولعلّ السّبب في ذلك راجع إلى قناعة أدونيس أنّ قصيدة النّثر لا تخرج عن كونها شعرا، وبهذا فالتّمييز بينهما ليس ضروريا! ...

ولعلّ ما يمكن ملاحظته، أيضا، هو تركيز أدونيس على اعتبار قصيدة النثر الوجه الحقيقي للعلاقة الجدلية بين الهدم والبناء، إذ يرى أنّها تتضمّن مبدأ مزدوجا "**<u>الهدم</u> لأنّها وليدة التّمرّد، <u>والبناء</u> لأنّ كل تمرّد ضدّ القوانين القائمة، مجبر ببداهة، إذ أراد أن يبدع أثرا يبقى، أن يعوّض عن تلك القوانين بقوانين أخرى، كي لا تصل إلى اللاّعضوية، واللاّشكل.**"

ويعطي تفسيرا لذلك بقوله: "**. . . من خصائص الشعر أن يعرض ذاته في شكل ما، وأن ينتظم العالم إذ يعبر عنه، إنّ النثر بطبيعته يرفض القيود الخارجية يرفض القوالب الجاهزة والايقاعات المفروضة من الخارج، وهو يتيح طواعية شكلية إلى أقصى حدود التنوع، بحيث أن قصيدة النثر تخلق شكلها الذي تريده كالنهر الذي يخلق مجراه**»، أي أنها زاوجت بين خصوصية الشعر والنثر في خلقهما للأشكال المميزة لكل منهما من ذاتيهما، فكانت نمطا جديدا يتقاطع معهما ويختلف عنهما في الآن ذاته.

وفي تأكيده على الهاجس التمردي الذي يطبع قصيدة النثر، ركز أدونيس على اعتبارها المولود الطبيعي الذي انجبته تناقضات الواقع العربي المحكوم "**...بالتغيير لا الثبات، الاحتمال لا الحتمية... والشاعر الذي يعبر حقيقة عن عصرنا، هو شاعر الانقطاع عما هو سائد ومقبول ومعمم، هو شاعر المفاجئة والرفض-الرفض الذي لا يع في تحليله الأخير غير القبول العميق الحر**»، ولهذا جاءت القصيدة النثرية استجابة لإيقاع تجربته الداخلية الرافضة للإيقاعات القديمة، والمسكونة بالتجدد والتحول كل لحظة.

وإذا كانت الآراء السابقة تبرز تأثر أدونيس بالتّصور النقدي الغربي لقصيدة النثر، فإن هذا لا ينف تأثره أيضا بالموروث الصوفي، ذلك أن تنظيراته النقدية نابعة أساسا من مزاوجته بين تصورين:

<u>الأول</u> منهما يرى أنها ذات جذور غريبة، ونشأت بفعل احتكاك الشعراء الطليعيين العرب بمنجزات كل من بودلير، ورامبو، وسان جون بيرس، ولوتريامون، ووالت ويتمان.

أما **<u>الثاني</u>** فيحاول إعطاء الشرعية العربية لهذا النوع من الكتابة، وذلك بالبحث، في النثر الصوفي و اعتباره الجذور الفعلية لقصيدة النثر العربية، ولعل هذا ما يتضح جليا في قوله: «**إنّ قصيدة النثر، مثلا، هي اليوم قصيدة عربية بكامل الدّلالة، بنية وطريقة، مع أنها في الأساس مفهوم غربي، وقد أخذت بعدها العربي خصوصا بعد تعرف كتّابها على الكتابات الصوفية العربية، فقد اكتشفوا في هذه الكتابات، وبشكل خاص كتابات النفري (المواقف والمخاطبات)، وأبي حيان التوحيدي (الإشارات الإلهية) و البسطامي (الشطحات)، وكثير من كتابات محيي الدين بن عربي، والسهروردي، أنّ الشّعر لا ينحصر في الوزن، وأنّ طرق التّعبير في هذه الكتابات، وطرق استخدام اللغة هي جوهريا، شعرية، وإن كانت غير موزونة**»

وأدونيس إذ يؤكد الأصل العربي لقصيدة النثر لا يخفي تأثره الكبير بمصنفات الصوفية، وخاصة منها والمواقف والمخاطبات»، للنفري والذي لم يتردد في إعلان إعجابه بما جاء فيه قائلا: **«لا أعرف كيف أصف دهشتي، حين قرأته. أعرف أنّني شعرت، وأنا أقرأه، أن لما أقرأه فعلَ القتل: قتلَ معظم الشّعر الذي سبقه، ومعظم الشّعر الذي أتى بعده، هكذا أدركت أنّني أمام شاعر عظيم...»**

ولقد أثار هذا الموقف الأدونيسي ردودا ومواقف مختلفة تفاوتت بين التأييد والمعارضة، حيث أكد عز الدين المناصرة أصالة قصيدة النثر بحماس زائد في قوله: «**... قصيدة النثر جنس كتابي خنثي قديم قدم سجع الكهان، وكتابات النفري، والسهروردي، وأمين الريحاني، وجبران، وغيرهم، حيث الإيقاع النثري والصورة الشّعرية المكثفة، والاختصار، والجمع بين النظام والهدم، وكافة مواصفات قصيدة النثر**».

في حين نفى محمد علي شمس الدين أن تكون لقصيدة النثر جذور في تراثنا الإبداعي بقوله أنها «**هجينة لا تشبهنا وليس فيها ملمح من ملامحنا، ولا تمثل حركتها الداخلية... وأنها قصيدة مستعارة حضر فيها الغائب وغاب عنها الحُضّار، أنا سميت شعراءها شعراء الاستشراق**».

وفي السياق نفسه أكد علي محمد زيد غرابة قصيدة النثر عن إبداعنا العربي القديم، بل وحتى عن الموروث الإبداعي الغربي بقوله: «**إذا كانت قصيدة النثر غريبة (تاريخيا) عن الشعر العربي، أو ليس لها أصل في التراث العربي؛ فإنها قد كانت كذلك في الشعر الفرنسي عندما ظهرت فيه لأول مرة، فقبل بودلير، ورامبو، ومالارميه، لم تكن موجودة، إذن، هي شيء جديد، بنت الحضارة الحديثة والمعاصرة، وبالتالي فإنّ القول بأنها غريبة عن تراثنا لم يعد حجة ضدها**».

هذه المواقف النقدية وغيرها كثير-لم ينقص من عزيمة أدونيس الرامية إلى تأصيل قصيدة النثر، والحداثة الشعرية ككل-في تراثنا العربي، ولا من بحثه المستمر عن أشكال تعبيرية جديدة، عن قناعة منه بأن قصيدة النثر ليست شكلا نهائيا مغلقا، فبمزاوجته بين خصائص قصيدة النثر الغربية وبين نمط الكتابة الصوفية تمكن من تطوير الكتابة بالنثر، حيث عمد إلى وضع مفهوم جديد أسس من خلاله، نمطا مختلفا عن الكتابة الشعرية، عرفت معه القصيدة الحداثية القطيعة المطلقة مع الأشكال التعبيرية السابقة، وهو ما أسماها بالقصيدة الشبكية المركبة (النثر

الآخر أو ملحمية الكتابة)، وقد عرفه بقوله أنّه: «**مزيج: شكل من الأفق الكلامي المتحرك، يتسع لاحتضان عناصر كثيرة-من النصوص الأخرى التي تكتبها الأشياء، في العالم تكتبها الكلمات في التاريخ، إنه، بتعبير آخر، خروج من "قصيدة النثر" إلى ملحمية الكتابة**".